التجارة الداخلية في مكة المكرمة

في مطلع القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي

من خلال رحلة بركهاردت

د. نادية بنت وليد الدوسري
قسم التاريخ - كلية الآداب للبنات بالدمام

تعد مكة المكرمة من حيث الأهمية الاقتصادية والتجارية المدينة الثانية بعد جدة، ويؤدي الحج دوراً كبيراً في إنعاش الحركة التجارية في المدينة المقدسة[١]، الذي كان من فوائده تنشيط حركة التجارة بين الحجاز وسائر بقاع الأرض ذهاباً وعودة، حتى غدا مصدرًا مهمًا من مصادر الدخل المكي[٢]؛ فكان الحجاج يغدون إلى مكة المكرمة وبحوزتهم الكثير من الأموال لجباة الضرائب والتجار[٣]، والكثير من المتاجر الشرقية التي كانوا يحضرونها معهم لممارسة النشاط التجاري عبر الطرق التي كانوا يسلكونها أولاً، ثم لتغطية تكاليف رحلتهم ثانياً[٤].

(١) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة دراسة في التغير السكاني (١٣٩٤ - ١٤٠٣هـ)، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ٧١.

(٢) فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، مطبعة الانتصار، الإسكندرية، ١٩٨٨م، ص ١١٧؛

Norman. C.Walpole, Area Hand Book for Saudi Arabia, London, 1971, P. 240.

(٣) محمد المانع: توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة عبدالله الصالح العثيمين، ط١، شركة مطابع المطوع، الدمام، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٢٦؛ جوهان لودفيج بركهاردت: مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبدالله بن صالح العثيمين، ط٢، د. ن، الرياض، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص ١٤٤.

(٤) فاروق عثمان أباظة: المرجع السابق، ص ٧٢ - ٧٣.

فقد كانت مكة المكرمة بلداً مفتوحاً للتجارة والكسب، ومما ساعد على ازدهارها - حتى سكنتها القبائل التي كانت تفد إليها من جميع الأصقاع والأقطار - هجرة إسماعيل ولد إبراهيم عليهما السلام، التي يمكن عدها البداية الواضحة لتاريخ مكة المكرمة، على الرغم من أنها كانت معروفة منذ فترات تاريخية موغلة في القدم(٥)، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد، ودليل ذلك ما أشارت إليه المصادر من أن البضائع ترد إلى مكة المكرمة من كل الجهات(٦)، والثمرات تجبى إليها من كل مكان لقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٧).

فلم تكن مكة المكرمة في يوم من الأيام في عزلة جغرافية، فقد كانت أسواقها تزدحم بالتجارة من جميع المصنوعات والمتاجر في رحلة إلى الشام ورحلة إلى اليمن، ولا يخفى ما كان للقرشيين من دور بارز في نقل التجارة مما أبرز أهمية الحجاز وعلى الأخص مكة المكرمة(٨).

لقد أصبح سكان مكة المكرمة ماهرين في التجارة، وبفضل تضخم رؤوس أموالهم صاروا في ثراء ويسر واسع، حتى غدت التجارة المصحوبة بالنشاط والمهارة مهنة لهم، وأصبحت من السمات التي تميز المجتمع المكي لتأصلها في نفوس أهلها بمختلف الطبقات، ولم يقتصر الأمر على سكانها من العرب فقط بل شمل أيضاً الجاليات الأجنبية التي كانت تتدفق إليها بأموالها وفنونها وعلومها(٩).

---

(٥) محمد محمود السرياني: المرجع السابق، ص ٢٠.

(6) British Admirality, Hand Book of Arabia, Vol. 1, P. 178.

(٧) سورة القصص، آية رقم ٥٧.

(٨) نبيل عبدالحي رضوان: الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس (١٢٨٦-١٣٢٦هـ/١٨٦٩-١٩٠٨م)، ط١، د. ن، جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١١؛ محمد محمود السرياني: المرجع السابق، ص٢٠.

(٩) لطيفة محمد سالم: الحكم المصري في الشام ١٨٣١-١٨٤١م، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ١٨٠؛ محمد محمود السرياني: المرجع السابق، ص ٢٠.

فكان من نتائج ذلك انتشار الأفكار الجديدة الموجودة خارج مكة المكرمة والتي كان يحملها باستمرار الحجاج الوافدون[١٠]؛ ولذا كانت الحجاز أكثر البلاد نعماً ومنافع ومرافق ومتاجر وغنى وتقدماً من بقية مناطق الجزيرة العربية، بل إنها كانت من أكثر المجتمعات معرفة للغات الأجنبية في العالم[١١].

ونظراً لأهمية موقع مكة المكرمة الجغرافي الذي جعلها مركزاً تجارياً منذ القدم، تأتي أهمية الزيارة التي قام بها بركهاردت، حيث تناول النشاط التجاري فيها كما شاهده في فترة زمنية مهمة، وهي الفترة التي قام فيها محمد علي باشا بالسيطرة على منطقة الحجاز[١٢].

ولد جون لويس بركهاردت في مدينة لوزان بسويسرا عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م[١٣]، وهو ينحدر من أسرة نبيلة، فوالده كان على صلة وثيقة ببعض المفكرين والشعراء والمؤرخين المفتونين بالتاريخ

(١٠) محمد المانع: المرجع السابق، ص ٢٦؛ بركهاردت: "مواد لتاريخ الوهابيين"، المرجع السابق، ص ١٤٤.

(١١) إبراهيم بن محمد المزيني: "الأسواق والمراكز التجارية عند ابن جبير في رحلته"، الدرعية، السنة الثالثة، العدد العاشر، ربيع الآخر ١٤٢١هـ/ يوليو ٢٠٠٠م، ص ١٦٨؛

David. E. Long., The Persian Gulf An introduction to its peoples, politics, and Economics, P. 12.

(١٢) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: "جدة في مطلع القرن التاسع عشر كما شاهدها الرحالة بركهاردت"، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، يوليو ٢٠٠١م، ص ١٧٦؛

Vincent Sheean, Faisal The King and his Kingdom, England, 1975, P. 97.

(١٣) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٧٧. وقد تعددت الأقوال حول اسم الرحالة "جون لويس بركهاردت" ما بين اسم جوهان لودفيغ بوركهارت وبورخارث وبركارد وبركاردت وجون بركلر، في حين يسميه الفرنسيون Jean Gode Froi-Louis Kosega Rten، والظاهر أن الصحيح هو: يوهن لودفيك بركهاردت (Johann Ludwig Burckhart)، كما ورد في كتاب خير الدين الزركلي: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ٢/١٤٨، ٨/٢٦٤.

العربي والإسلامي، وتلقى تعليمه بمعهد بمدينة نيوشاتل وجامعة ليبزج (ليبزيغ) عام ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م، ومنها اتجه إلى لندن حيث درس اللغة العربية في جامعة كمبردج، كما تعلم الطب والفلك وعلومًا أخرى(١٤).

اتصف بركهاردت بالحرص على نقل الحقائق التاريخية والاقتصادية التي يكتب عنها إلى جانب الدقة في الوصف، والتحري والتمحيص في الروايات التي كان يسمعها وبالنزعة العلمية أيضاً(١٥)، كما أنه كان في مظهره محترماً وموقراً(١٦).

ومن أشهر مؤلفاته كتاب "ملاحظات عن البدو والوهابيين"، وكتاب "رحلات في الجزيرة العربية"(١٧). لذلك عدّه المستشرقون والعلماء الرائد الحقيقي الأول لحركة الكشوف في الأراضي المقدسة والقطر الحجازي(١٨).

توفي بركهاردت في مصر وهو في ريعان شبابه، ودفن في قرافة باب الفتوح بجوار قبة الشيخ يونس، وما يزال قبره موجوداً بها، ومكتوبًا على شاهد تربته هذه العبارة: "هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي عبدالله بوركهاردت اللوزاني

(١٤) سمير عطا الله: قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (١٧٦٢ - ١٩٥٠م)، ط١، دار الساقي، لندن، ١٩٩٤م، ص ٥٦ - ٥٩؛ إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٧٧.

(١٥) محمد سعيد الشعفي: "كتاب بوركاردت كمصدر تاريخي واقتصادي للدولة السعودية الأولى"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٤٥٣.

(١٦) أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث، ط٦، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٣، ص ٨٠-٨١.

(١٧) محمد سعيد الشعفي: المقالة السابقة، ص ٤٥٣؛ خير الدين الزركلي: المرجع السابق، ص ١٤٨.

(١٨) عبدالشافي غنيم عبدالقادر: "الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٤٣٠ - ٤٣١.

تاريخ ولادته ١٠ المحرم ١١٩٩هـ، وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢هـ"(١٩) .

مكة المكرمة مركزًا للتجارة الداخلية:

انفردت منطقة الحجاز وخاصة القسم الشمالي منها بخصائص حضرية متميزة تبلورت في مجموعة من الاتجاهات التي تتصل بوظائف المدينة، وبالتالي انعكست على نشاط سكانها الاقتصادي، وأدت إلى بروز العديد من المؤسسات العريقة للتجارة والخدمات، مما جعلها تظهر بمستوى حضري شديد الخصوصية على جميع مناطق شبه الجزيرة العربية والعالم الإسلامي، التي كانت من أهم ملامح الحجاز الذي ميزته عن غيره ولفتت الأنظار إليه(٢٠).

لذلك وجد بركهاردت أثناء زيارته لمكة المكرمة أن أهلها يشتغلون بحرفتين لا ثالثة لهما، وهما حرفة التجارة، وخدمة البيت الحرام، ولكنه في الوقت نفسه غلب الحرفة الأولى على الثانية مستثنياً من ذلك علماء الدين الذين كان عملهم محصوراً في نطاق المسجد الحرام، ولا يعملون في التجارة(٢١). كما لحظ بركهاردت أثناء وجوده في مكة المكرمة أن شوارعها تنتشر بها

وجد بركهاردت أثناء زيارته لمكة المكرمة أن أهلها يشتغلون بحرفتين لا ثالثة لهما

---

(١٩) خير الدين الزركلي: المرجع السابق، ص٢٦٤؛ عبدالشافي غنيم عبدالقادر: المقالة السابقة، ص ٤٣٠ - ٤٣١، ويذكر أنه عاد إلى القاهرة سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م، وقد أخذ منه الأعياء كل مأخذ، وفي السنة التي بعدها زار سيناء، وعاد إلى القاهرة في يونية ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م، وكان يعتزم السفر إلى فزان؛ ليبدأ منها رحلة جديدة للاستكشاف، ولكنه مرض وتوفي في القاهرة موصياً بمجموعة مخطوطاته إلى جامعة كمبردج، وكتاباته كلها تدور حول رحلاته، وقد تولت الجمعية الأفريقية بإنجلترا نشرها، وله بالعربية " أمثال عربية " مع ترجمتها إلى الإنجليزية، انظر: خير الدين الزركلي: المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٢٠) عمر الفاروق السيد رجب: الحجاز المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية: أرضه وسكانه دراسات إيكولوجية، ط١، دار الشروق، جدة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٦١.

(21) John Lewis Burckhardt , Travels in Arabia , London , 1829 , P. 187.

دكاكين الحرفيين كالبنائين والنجارين والخياطين وصانعي الأحذية والحدادين، ولكنه نفى أن تكون لهم مهارة نظرائهم من الحرفيين في مصر، حيث إن مهارتهم تقل كثيراً عن السابقين[٢٢].

ولعل بركهاردت يشير إلى السوق بوصفه ظاهرة إنسانية حضارية إلى جانب كونه ظاهرة اقتصادية، فهو يشمل المكان الذي يتجمع فيه أصحاب الحرفة الواحدة بشكل متجاور يضم شارعاً أو أكثر، وتقوم فيه مجموعة الحوانيت والدكاكين التي تكون دكاكين للبيع أو دكاكين للتصنيع والتجارة[٢٣]، وكانت منتشرة على طول الشارع الرئيس وسط المدينة، فلا توجد في مكة المكرمة أماكن مخصصة للأسواق العمومية، فجميع الأسواق تقام على طول الشوارع الرئيسة، وهي عبارة عن أسواق دائمة تمتد من طرف المدينة إلى الطرف الآخر، وفيها جميع السلع ومن الأنواع كافة، وتزدحم بالناس في مختلف الأوقات بالنهار، ولا سيما في موسم الحج[٢٤].

ونظراً لأهمية أسواق مكة المكرمة رأينا أنه من الضروري التطرق لها، ولا سيما أن بركهاردت أغفل الحديث عنها بإيضاح.

يعد سوق الشامية - الذي يقع في الطرف الشرقي من السويقة الممتد من اليمين إلى الجبل ومن الشمال إلى حد الحرم الشريف،

(22) John Lewis Burckhardt , Ibid , P. 187.

(٢٣) إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٥٤؛ وللمزيد من التفاصيل عن الأسواق انظر:

Norman. C. Walpole, op. cit ., P. 242 - 243.

(٢٤) عبدالحفيظ حمان: "الحياة العامة في بعض مدن الحجاز في بداية القرن التاسع عشر من خلال رحلة دومينجوباديا (علي باي العباسي)"، الدارة، العدد الثاني، السنة الثامنة والعشرون، ١٤٢٣هـ، ص ١١٦؛ وأسواق المدن أكثر تفصيلاً، حيث تقسم إلى أقسام، في كل قسم تباع بضاعة معينة، وغالباً ما تكون هذه الأسواق في الشوارع الضيقة بعيداً عن الشمس، وغالبية التجارة كانت تدار بوساطة محلات صغيرة، وأغلب بضاعتها مستوردة. انظر:

Norman. C. Walpole, op. cit ., P. 268

وهي المنطقة التي يسكنها التجار والأغنياء؛ لأنها منطقة جيدة البناء - من أشهر أسواق مكة المكرمة الكثيرة، وهو يشبه في عمارته الأسواق التركية المسقوفة بالخشب مثله في ذلك مثل خان الخليلي بمصر، ولكنه يختلف عنه قليلاً في أن شوارعه ضيقة بحيث تضيق بالمارين وبالجمال عند مرورها به، ويباع في هذه السوق أنواع عدة من السلع كالمسابح والأقمشة بمختلف أنواعها الهندية والتركية والشامية والحلبية؛ وأشهرها المنسوجات الحريرية، إضافة إلى الأحجار الكريمة التي كان يبيعها حجاج اليمن بثمن رخيص جداً في شوارع المدينة، وكانوا متخصصين في المتاجرة بها، أما السوق الصغير الذي يقع على يمين الحرم في مواجهة باب إبراهيم فهو مخصص لبيع المواد الغذائية والتموينية كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر، كما يوجد فيه العديد من الدكاكين لبيع السمك المقلي الذي يجلب من جدة غير أنه مضر جداً بالصحة لتعفنه من الحرارة وطول فترة نقله إلى مكة المكرمة، كما يباع الجراد فيه بالوزن، أما سوق الليل فهو يقع في شرق المسجد الحرام، وهو سوق كبير يتوافر فيه جل ما يحتاجه الحجاج؛ ولذلك يعد سوق البضائع المختلطة(٢٥).

بالإضافة إلى السوق الذي يقع بين الصفا والمروة، واشتهر بكونه سوقًا منتظمة، تباع فيه جميع الفواكه والأطعمة بمختلف أنواعها، كذلك الحبوب؛ ولذلك فهو مزدحم بالمشترين الذين لا يكادون يخلصون من شدة الزحام به، ويصطف على يمينه وشماله دكاكين البائعين الذين يقفون تحت أكواخ مصنوعة من العصي والحصر المنسوجة من القصب، وبعضهم الآخر يقف تحت نوع من المظلات كبيرة الحجم في وسطها ثلاث عصي تستند إليها، فهناك أصحاب

(٢٥) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، ط٣، مكتبة المعارف، د. ت، ص ٣٩، ٦١-٦٢؛ حسين أمين: "نظرة بعض الرحالة المسلمين وبعض الرحالة الغربيين عند زيارتهم لمنطقة الحجاز"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٣٩٤-٣٩٥.

المطاعم، والباعة المتخصصون في بيع الحلويات[٢٦]، إلى جانب الخبازين والزمزمية (بائعي الماء)[٢٧]، وبائعي الفحم والخضار وبائعي الثياب (البزازين)، ومفردها بزاز، ويسمون أيضاً القماشين؛ لبيعهم الأقمشة المنسوجة[٢٨]، ويوجد عند باب بني شيبة تحت السوق التي بين الصفا والمروة وبشكل قريب ومتصل به بائعو العطارة (العطارين)[٢٩].

وكان بعض الباعة يضع على الأرض نوعًا من الخيش يسمى (الجوت) المصنوع من بقايا الخيوط الرديئة يفترشه، وينشر عليه أفضل ما لديه من بضاعة مثل: الليمون الذي يسمى في مكة المكرمة (بن زهير) وهو أكثر أنواع الليمون فائدة والكراث وأحياناً الرمان المجفف، إضافة إلى الباعة المتجولين من بدو ثقيف وقبائل قريش مع عدد من الأشراف الفقراء الذين يحملون على رؤوسهم عكمة (بقشة) بها أنواع مختلفة من البضائع كالمدورات والكفيات والأحارم وبعض المنسوجات، وفي يدهم بعض منها لعرضها على المشترين، وكانت لهم شهرة وشأن، أما بعضهم الآخر فكان يحمل على رأسه زنابيل الفاكهة وخاصة الرمان، أما بائعو الرمان من البدو فقد كانوا يشترونه من الحلقة، ويبيعونه على قوافل الحجاج الذاهبة إلى جدة والمدينة المنورة أو القادمة منها[٣٠].

كما يوجد سوق يسمى المعلا لبيع العيش (الخبز) والجبن والتمر، وهو أنواع عدة مختلفة، وهي من السلع المربحة، والتي يقبل عليها

(٢٦) إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٥٦؛ عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١١٦.

(٢٧) طالب محمد وهيم: مملكة الحجاز (١٩١٦-١٩٢٥)، دراسة في الأوضاع السياسية، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٨٢م، ص ٩٣.

(٢٨) عبدالحميد مرداد: رحلة العمر، الرحلة الأولى، الرحالة السعودي، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، لبيك للطباعة، جدة، ١٤١٠هـ، ص ٢٩٣، ٢١٠ - ٢١١.

(٢٩) إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٥٦.

(٣٠) عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ٢٩٥ - ٢٩٩، ٤٢١.

الناس بصفتها جزءًا من الطعام اليومي لجميع الطبقات بمختلف فئاتهم الاجتماعية[٣١]؛ لأنه كان الغذاء الأساسي للشعب الذي كان يعيش معظمه على الرعي[٣٢].

وقد قامت على هامش تجارة التمور صناعة لتحويلها إلى عجوة عن طريق كبسها، وهي أنواع كثيرة، أهمها وأفضلها التي تأتي من قرية تربة بالقرب من مدينة الطائف، على أن النوع الأكثر شيوعاً في الأسواق هو النوع القادم من قرى وادي فاطمة وخليص والجديدة، وهي قرى في الطريق إلى المدينة المنورة[٣٣]. ويوجد دكاكين في السويقة المواجه لباب الزيادة، وهي إلى الشرق من المروة التي ينتهي فيها المسعى، تمتد بموازاة الجانب الشرقي من الحرم الشريف، وهي سوق صغيرة نظيفة على الدوام، يعرض فيها التجار الهنود والأغنياء سلعهم الثمينة، مثل: الموسلين والشال الكشميري، وفي منتصف السويقة توجد مساطب حجرية يبيع فوقها النخاسون العبيد الأحباش من الجنسين، ويبلغ سعر العبدة الجميلة من هؤلاء ما بين مئة وعشرة ريالات[*] ومئة وعشرين ريالاً. وكانت هناك دكاكين بباب العمرة[٣٤] ودكاكين لبيع الفاكهة بالمسعى بجميع أنواعها، وهي تشبه السوق الأستانبولية، كما كان هناك عدد كبير من الدكاكين يديرها

(٣١) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٨٩ - ١٩٢.

(٣٢) أحمد عسّه: معجزة فوق الرمال، ط١، المطابع الأهلية اللبنانية، ١٩٦٥م، ص ٣٥١؛ Norman. C. Walpole, op. cit., P. 217.

(٣٣) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٨٩ - ١٩٢.

(*) الريال: هو العملة الشعبية المعروفة، وتساوي ١ شلن و ١٠,٢٥ بنسات، وتسمح الحكومة العثمانية بجباية الضرائب بالريال أو الروبية بالإضافة إلى العملة العثمانية الرسمية. انظر: ج. ج لوريمر: دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٢، طبعة جديدة ومعدلة ومنقحة، أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، د. ت، ص ٨٥٠ - ٨٥١.

(٣٤) عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ٢١٠ - ٢١١، ٢٨٤؛ حسين أمين: المقالة السابقة، ص ٣٩٥.

أناس أتراك من أوربا أو آسيا الصغرى، وكان هؤلاء يبيعون مختلف الألبسة التركية وأنواعها، وكانت تباع في هذه الدكاكين السيوف الجميلة والساعات الإنجليزية الممتازة ونسخ القرآن المزخرفة، كما كان طباخو إستانبول يبيعون فيها أنواع المأكولات والحلويات قبل الظهر، والكباب وغيره من اللحوم المشوية بعد الظهر، والمهلبية عند الغروب، ودكاكين أيضاً لبيع المأكولات الجاوية والسمن(٣٥)، بالإضافة إلى مجموعة من الدكاكين المقامة للبيع في موضع الطواف ودكاكين الحلاقين(٣٦) الذين يحلقون شعور الحجاج بعد انتهائهم من السعي، وهناك أكثر من عشرين دكاناً تباع فيها أنواع العطور والدهون والند، وفي دكاكين أخرى تباع المصوغات وقلائد المرجان والصندل بأنواعها، فضلاً عن سلع الصيني الفرفوري (الخزف)(٣٧).

أما الأسواق الموسمية التي كانت عامرة أيام التشريق في منى فقد كان يباع فيها مختلف السلع كالجواهر النفيسة والخرز وغير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا من هندية ومصرية وصينية ويمنية من عطر وعقيق وزعفران وعاج ولؤلؤ وديباج وعنبر(٣٨).

وفي جميع هذه الأسواق فإن حركة البيع تكاد لا تنقطع طوال مدة الموسم، مما ترتب عليه توافر الربح العظيم لأهل مكة المكرمة، وكان العبيد يقومون بالأشغال الشاقة، فكان منهم الحمالون والحطابون

(٣٥) عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ١٣٠، ٢٠٣؛ حسين أمين: المقالة السابقة، ص ٣٩٤.

(٣٦) منير العجلاني: تاريخ البلاد العربية السعودية، الدولة السعودية الأولى، ج٢، عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد، ط٢، د. ن، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٦٨؛ عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٣٧) حسين أمين: المقالة السابقة، ص ٣٩٥.

(٣٨) عبدالمجيد الذويب: "الجغرافيون العرب دورهم في التعريف بالجزيرة العربية"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٢٩٧؛ إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٥٩ - ١٦٠، ص ١٦٩.

والحمارون والجمالون والسقاؤون والخادمون، وفي مكة المكرمة سوق كبيرة مخصصة لبيع الرقيق، ويسمى المكان الذي يتم فيه البيع دكة؛ بحيث يجلس عليها ما يراد بيعه من العبيد، ولكن مع مرور الوقت زال أثر هذه السوق، فلم يعد لها شأن يذكر(٣٩).

أما الصناعة في مكة المكرمة فليست بالأمر المهم، فلم تكن تتجاوز الحرف المهنية اليسيرة التي كان يحتاجها الناس بشكل يومي في حياتهم كصياغة بعض القطع الذهبية والفضية، والنجارة التي كانت محدودة والمصنوعات الفخارية لصنع الدوارق والقلل، وكان أهل مكة المكرمة يفضلون العمل في التجارة على العمل في الصناعة التي كانوا يعيبون العمل بها، ويعدون الاشتغال بالحرف فيه خدمة للآخرين؛ ولذلك تجدهم يترفعون عن امتهان أي عمل صناعي أو حرفة يدوية؛ مما أدى إلى التقليل من نسبة العاملين في الصناعة، بينما اقتصرت وبشكل عام على أصحاب الجنسيات الأجنبية من خارج الجزيرة العربية(٤٠).

لذلك كان لموقع مكة المكرمة دور كبير في توجيه أهلها إلى الاشتغال بالتجارة، وعدم القيام بأي عمل صناعي أو حرفيٍ إلا للضرورة القصوى، لهذا كانت الحرية في ممارسة التجارة حائلاً دون النزول إلى ميدان المنافسة الصناعية، ومما لا شك فيه فقد أدى هذا الأمر إلى إغراق السوق بالمنتوجات الصناعية الخارجية والتي كانت تمتاز بالجودة(٤١)، إلى جانب الإمكانات الفقيرة التي وقفت مانعاً

(٣٩) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦١ - ٦٢.

(٤٠) عبدالفتاح حسن أبو عليّه: تاريخ الدولة السعودية الثانية (١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ/ ١٨٤٠ - ١٨٩١م)، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٢٩٥؛ محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦٠-٦١. كانت صناعة الحلي على درجة عالية من الإتقان، وما يزال صاغة مكة المكرمة إلى يومنا هذا مشهورين بإتقان الصنعة. انظر: الأمير شكيب أرسلان: "الطريقة المثلى لعمران الحجاز الاقتصادي"، المنار، م٣١، ج٩، المحرم سنة ١٣٥٠هـ، يونية سنة ١٩٣١م، ص ٧٠٢.

(٤١) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٨٣؛ لطيفة محمد سالم: المرجع السابق، ص ١٩٣.

أمام قيام صناعة محلية متطورة، وصعوبة ذلك في ظل الظروف الصعبة التي كانت تمتاز بها الحجاز عن غيرها من المناطق، وبالرغم من ذلك التخلف في الصناعة إلا أن ذلك لم يمنع من القيام ببعض المشاريع المحلية الصغيرة اليسيرة، ولا شك أن الإعانات المالية التي كانت تؤدي إلى إنعاش الوضع الاقتصادي في مكة المكرمة خاصة كانت من ضمن الأسباب التي أدت إلى عدم اهتمام أهلها بالصناعة وغيرها من المهن(٤٢).

ونظرًا لذلك أشار بركهاردت إلى عدم وجود صناعات في مكة المكرمة، ولعله كان يقصد الصناعات الثقيلة، على الرغم من أنه ذكر وجود بعض الصناعات الخفيفة التي يقوم بها سكان مكة المكرمة، وهي كما أوردها في كتابه بعض مصانع الفخار والمصابغ التي تصبغ فيها الأقمشة، وصناعة الأحذية(٤٣).

ومعنى ذلك عدم وجود صناع في مكة المكرمة قادرين على طرق أو صنع الأقفال والمفاتيح، بل إن جميع المفاتيح والأقفال كانت بدائية ومصنوعة من الخشب، بالإضافة إلى الصناديق التي يتم جلبها من الخارج(٤٤)، كما لا يوجد صناع قادرون على صنع الأسلحة في مكة المكرمة، فهم لا يعرفون إلا صنع البنادق البدائية ذات الفتيلة، ومع ذلك فهي صناعة دقيقة جداً، إضافة إلى صناع السكاكين المقوسة والرماح(٤٥)، وصناع الصفيح الذين يصنعون نوعاً من الأوعية التي

---

(٤٢) طالب محمد وهيم: المرجع السابق، ص ١٢٤ - ١٢٥؛ محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦٠ - ٦١؛ وهذه الصناعات كانت نادراً ما تصدر للخارج، وهذه الصناعات اليدوية بدأت في الانقراض بعدما زاد الاستيراد لمنتجات بأسعار أقل بجانب أنه عادة ما تكون هذه الصناعات اليدوية قليلة الجودة. انظر:

Norman. C.Walpole., op . cit ., P. 243.

(43) John Lewis Burckhardt., op. cit ., P. 187.

(٤٤) عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١١٦.

(٤٥) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦٠ - ٦١؛ عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١١٧.

يستعملها الحجاج لحمل مياه زمزم والكوفيات التي كان يصنعها الإندونيسيون(٤٦).

يستنتج من ذلك كما ذكر الجاسم "أن تلك الصنائع كانت تقليدية الصنعة بسيطة التصنيع، كما أنها كانت لا تنتج بكميات كثيرة إلا في الظروف الاستثنائية"(٤٧).

وقد ذكر بركهاردت أن جزءًا من العملات (الأموال) التي يجنيها أهل مكة المكرمة يذهب إلى اليمن والهند، ويبقى ربع هذه الأموال في أيدي أهل مكة المكرمة، إنها تجارة مربحة، فالبضائع يتم شراؤها من قبل التجار في جدة من السفن القادمة من الهند، ومن ثم يقوم تجار مكة المكرمة بشراء هذه البضائع بالجملة؛ ليبيعوها خلال موسم الحج بربح يتراوح بين ٢٠٪ إلى ٥٠٪، ولا يعجب من أن أهل مكة المكرمة جميعاً يعملون في التجارة، حيث إنه بإمكان أي منهم أن يذهب إلى جدة، فيشتري بضاعة ببضع مئات من الدولارات(*)، ويبيعها أثناء موسم الحج؛ وبذلك يحقق ربحاً من هذه التجارة(٤٨).

(٤٦) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٨٣؛ عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٤٧) محمد علي رضا الجاسم: اقتصاديات المملكة العربية السعودية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٢م، ص ١٥٨.

(*) المقصود بالدولار هنا دولار ماريا تيريزا (Maria Teresa)، وهو من أكبر العملات التي كانت متداولة في معظم أنحاء الجزيرة العربية، وينسب إلى الإمبراطورة ماريا تيريزا (١١٣٠-١١٩٤هـ/ ١٧١٧-١٧٨٠م) ملكة هنغاريا (بالمجر) وبوهيميا (تشيكوسلوفاكيا) ودوقة النمسا ولوترنجن، وزوجة الإمبراطور فرانسيس الأول، ووالدة الملكة ماري أنطوانيت ملكة فرنسا، وعرف في الجزيرة العربية بالريال الفرانسي، وعند ظهور الريال السعودي اختفى من الأسواق. انظر في ذلك:

- Hawley Donald, The Trucial States, London, 1970 , P.150, 162;

- F. S. Vedal, The oasis of Al Hasa, Arabian Research Division, 1955, P. 176 - 177.

(48) John Lewis Burckhardt., op. cit. , p.187.

ويجني أصحاب الدكاكين وتجار التجزئة أرباحاً أكثر عند شرائهم للبضائع من القوافل، في حين تكون هذه الأرباح قليلة عند شرائهم للبضائع من تجار الجملة، ويقوم تجار مكة المكرمة الذين لا تتوافر لديهم الأموال الكثيرة اللازمة للتجارة بالبضائع الهندية بتوظيف رؤوس أموالهم للتجارة في الذرة والمواد التموينية الأخرى خلال موسم الحج، وأشار بركهاردت إلى أن التجارة في هذه المواد في السابق كانت عملية مربحة، إلا أن ذلك قد تغير في وقت لاحق، ويرجع السبب في هذا التغيير إلى أن محمد علي باشا أصبح يحتكر التجارة في المواد التموينية(٤٩)، وأصبحت كل الحبوب التي يتم شحنها إلى ميناء جدة تتم لحسابه، وكذلك السلع الأخرى، مثل: السمن والبصل، وقد فرض أسعاراً احتكارية للسلع التي كان يوردها إلى منطقة الحجاز(٥٠) للحصول على المزيد من الربح؛ مما أدى إلى ارتفاع أسعارها ارتفاعاً باهظاً، حتى بلغت الأثمان ضعفها في مصر(٥١). هذه السياسة

(49) John Lewis Burckhardt, Ibid, P. 188 - 189.

ومن الأمثلة الدالة على احتكار محمد علي باشا للغلال الواصلة إليه من مصر، التي كان يبيعها على العسكر بأغلى ثمن أنه كان يحجر على الحجاج والمسافرين إحضار أي شيء معهم من الحب والدقيق، وكان يتم تفتيش أمتعتهم في السويس، وأخذ ما يجدونه معهم من القمح والدقيق، وغير ذلك مما يحملونه لزادهم ونفقتهم. انظر: محمد أديب غالب: من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، ط١، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص ١٦٠.

(٥٠) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٩١؛ ولقد أشارت إحدى الوثائق إلى احتكار محمد علي باشا للتجارة في جميع موانئ الحجاز واليمن. انظر: دار الوثائق القومية، القاهرة، محفظة (١) ذوات، رقم وحدة الحفظ (٧٨)، تاريخها، ٢٤ صفر ١٢٣٣هـ/ ٣ يناير ١٨١٨م، من الجناب العالي إلى رستم أفندي مأمور أمور تجارة محمد علي باشا في جدة.

(٥١) فاروق عثمان أباظة: المرجع السابق، ص ٣٣-٣٤؛ هنري دودويل: الاتجاه السياسي لمصر في عهد محمد علي مؤسس مصر الحديثة، تعريب، أحمد محمد عبدالخالق بك - علي أحمد شكري، مكتبة الآداب، د. ت، ص ٥٠ - ٥١؛ ولقد وصل سعر أردب الحبوب إلى ما يتراوح بين ١٣٠-١٦٠ قرشاً، في حين أن سعره في مصر كان اثني عشر قرشاً. انظر: إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٩١.

الاحتكارية جعلته مسيطراً على تجارة الواردات، كما مكنته من جني الكثير من الأرباح، والتي كان من أبرز نتائجها اتساع دائرة التبادل التجاري لمصر[٥٢] إلى جانب الإيرادات الضخمة التي كان يجنيها من وراء ذلك، التي صرفها على القوات المسلحة[٥٣].

لذا فإن التجار أصبحوا مجبرين على شراء الحبوب من جدة، وبالأسعار التي يفرضها محمد علي[٥٤]، ولكن تلك السياسة الاحتكارية أدت إلى عدم رضا التجار عن السياسة الاقتصادية المفروضة عليهم[٥٥]، وهذا ما دفعهم بمرور الوقت إلى الاستغناء عن الحبوب المصرية وخاصة الشعير والأرز، واستبدالها بالحبوب الهندية وخاصة الأرز الهندي، الذي هو الغذاء الأساسي لمعظم شبه جزيرة العرب[٥٦].

بالتالي فإن على هؤلاء التجار الاكتفاء بهامش ربح معتدل عند بيعهم لهذه الحبوب في مكة المكرمة، وبعد أن يقوم هؤلاء التجار بدفع مصاريف نقل الحبوب من جدة إلى مكة المكرمة يبقى لديهم هامش ربح يتراوح بين ١٥٪ و٢٠٪، وهذا النوع من التجارة يتناسب مع التجار ذوي رؤوس الأموال الصغيرة، حيث يكون بإمكان صغار التجار هؤلاء مضاعفة رؤوس أموالهم في فترة قصيرة[٥٧].

(٥٢) جميلة سعد زيد العيسى: الصراع البريطاني الفرنسي حول البحر الأحمر ١٢١٣ - ١٢٨٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٦٩م، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٣٦٦.

(53) Vatikiotis . P. j., The modern History of Egypt , London , 1969, P. 64.

(54) John Lewis Burckhardt., op. cit ., P. 189;

كان محمد علي باشا يشتري المحاصيل من المزارعين مقابل أسعار منخفضة ومحددة، ثم يقوم بإعادة بيعها للسماسرة المحليين والمصدرين الأجانب بأرباح كبيرة. انظر في ذلك:

Thomas. E. Marston, Britain's Imperial Role in the Red sea Area 1800-1878, Copyright , 1961, P. 50 - 51 ; Vatikiotis . P.J., op . cit . , P. 65.

(٥٥) لطيفة محمد سالم: المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٥٦) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٩١؛ صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤م، ص ٦٩.

(57) John Lewis Burckhardt., op. cit ., P. 189.

ومع قدوم موسم الحج ترتفع أسعار المواد التموينية كافة، وكذا بشكل أقل نسبياً بالنسبة للسلع الأخرى، ونتيجة لذلك فإن التجار الذين يمتلكون مخزوناً كبيراً من الذرة والأرز والبسكوت(٥٨) سيحصلون بالتأكيد على ربح وفير، ويقدر توفير الطعام لحشد كبير بحوالي ستين ألف إنسان، والعلف بحوالي عشرين ألف جمل، وكذلك المواد التموينية اللازمة لهؤلاء الحجاج أثناء رحلة عودتهم إلى ديارهم ليست بالعملية التجارية البسيطة، كما أن محمد علي لم يسيطر بعد على كامل هذه التجارة لحسابه. وذكر بركهاردت أن كل فرد من أهل مكة المكرمة ممن يمتلكون مبلغاً قليلاً من الدولارات يقوم بشراء المواد التموينية، ونقل هذه المواد على حماره إلى مكة المكرمة؛ ليبيعها في موسم الحج(٥٩).

---

(٥٨) ربما قصد بركهاردت البقسماط، وهو التموين الذي يعد لحجاج بيت الله الحرام إلى جانب الغلال والدقيق. انظر: فاروق عثمان أباظة: المرجع السابق، ص ١٣٤. وقد أشارت الوثائق المعاصرة لفترة سيطرة محمد علي باشا في الحجاز لهذا التموين حين ذكرت ورود "ثمانية وستين كيساً من البقسماط" من مصر. انظر: دار الوثائق القومية، القاهرة، محفظة (٣) بحربرا، رقمها في وحدة الحفظ (٥٥)، تاريخها، ٩ المحرم ١٢٢٩هـ/ ١ يناير ١٨١٤م. والبقسماط لفظة يونانية وتركية، وبالفارسية يسمى بقسمات، وتعني هذه التسمية: الخبز الجاف الذي يحمله المسافر؛ ليتزود به، وكان أمير الحاج ينعم على المنقطعين من الحجاج بالماء والبقسماط في الطلعة والرجعة. انظر أيضاً: سعد بدير الحلواني: العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩، ط١، د. ن، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٢٤٤؛ عبداللطيف إبراهيم: "وثائق الوقف على الأماكن المقدسة"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٥٢.

(59) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 189.

كانت أسعار الغلال في الحجاز متفاوتة وغير محددة، فلم تكن هناك قاعدة ثابتة لأسعار السلع الغذائية، فكان كل من يمتلك النفوذ له أن يستغل أهل البلاد بالطرائق التي تحلو له، ويعود السبب في ارتفاع أثمان السلع هو طول المسافة بين المدن بعضها ببعض، بحيث إن عملية النقل لا تتم بالسرعة المطلوبة، وتتطلب وقتاً أطول. سعد بدير الحلواني: المرجع السابق، ص ١٢٨؛ لطيفة محمد سالم: المرجع السابق، ص ١٩٣؛ عمر الفاروق السيد رجب: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

إن استهلاك الحبوب في الجزيرة العربية أكثر منه في البلدان المحيطة بها، حيث إن أغلب سكان الجزيرة يعتمدون في غذائهم القمح والشعير والعدس والأرز(٦٠)، ولا تدخل الخضروات في الغذاء اليومي لسكان مكة المكرمة إلا بالنسبة للطبقة الثرية من سكان البلاد الساحلية؛ لندرتها وعدم توافر المياه الكافية لزراعتها محلياً، وبالتالي أصبحت زراعتها قليلة، إلى جانب أنها تحتاج إلى وسائل نقل سريع وإلى مراكز حضرية ذات كثافة استهلاكية عالية، كما أنها تتأثر بالنقل من خارج حدود البلاد(٦١)، ولذلك ذكر بركهاردت أن أهل مكة المكرمة لا يستهلكون الخضار، بل يستهلكون كميات كبيرة من الزبدة(٦٢)، التي كانت تحفظ في الأوعية والقرب، ولكنها تكون مذابة على شكل زيت بسبب ارتفاع درجة الحرارة دائماً(٦٣)، وهذا الأمر ليس بمستغرب؛ نظراً لكثرة الماشية وتوافرها، التي كانت تجلب من نجد لتباع في أسواق بعض مناطق الحجاز، حيث كانت سوقاً رائجة، ثم تنقل إلى مكة المكرمة لبيعها هناك مع منتجات نجد الأخرى(٦٤).

استهلاك الحبوب في الجزيرة العربية أكثر منه في البلدان المحيطة بها

من الوظائف العاملة في السوق السمسار، فقد أشار بركهاردت إلى أن هناك الكثير من الأرباح (الأموال) التي يتم جنيها عن طريق

(60) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 191;

كان القمح حتى عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، يعد أهم الحبوب للسعوديين حتى تم استيراد الأرز الذي حل مكان القمح. انظر:

Norman. C. Walpole. op. cit., P. 217 - 218.

(٦١) أحمد عسه: المرجع السابق، ص ٣٥١؛ عمر الفاروق السيد رجب: المرجع السابق، ص ٢٥٨، ص ٢٨١. على الرغم من توفر كميات من الخضر في الطائف والمدينة المنورة إلا أنه ربما كانت تستغل للاستهلاك المحلي فقط لقلتها.

(62) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 191.

(٦٣) عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١١٣.

(٦٤) مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين، ط٢، دار الشروق، جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٩٩.

الغش والخداع، حيث إن عدداً كبيراً من الحجاج لا يتكلمون العربية؛ لذا فإنهم يقعون فريسة سهلة للسماسرة الذين يجعلون هؤلاء الحجاج يدفعون أضعاف الخدمات المقدمة لهم، وذكر أن انتشار هذه الظاهرة يجعل أهل مكة المكرمة يبدون متفقين بالإجماع على أساليب الغش والخداع التي يمارسونها على الحجاج[٦٥]، وذكر أيضاً أن عقد الصفقات التجارية يتم من خلال السماسرة الذين يكونون في الغالب من الهنود، وتتم عملية المساومة التجارية بين التجار بإشارات سرية عندما يكون حولهم أشخاص غرباء، ولا يودون إطلاعهم على الأسعار، ويتم ذلك عادة بالتصافح بالأيدي، ولمس فقرات الأصابع بطريقة متعارف عليها للدلالة على الأرقام، وبذلك يتم الاتفاق على الأسعار، وإتمام الصفقات التجارية دون أن يلحظ الحضور أسعار الصفقات التي يتم عقدها[٦٦].

في حين يعمل بعض أهل مكة المكرمة مطوفين وأدلاء خلال موسم الحج؛ حيث يزداد الطلب على خدماتهم خلال هذه الفترة، ونوه إلى وجود أعداد كبيرة منهم يرافقون الحجاج إلى مختلف الأماكن في المشاعر المقدسة، وهم دائماً على استعداد لتقديم جميع أنواع الخدمات في مكة المكرمة[٦٧]، فكان أغلب الأهالي يعيشون من مهنة التطويف أو التظاهر بالشعار الديني، ولا تروج تجارتهم إلا زمن

---

(65) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 188.

(66) John Lewis Burckhradt., I bid., P. 191.

(67) John Lewis Burckhradt., I bid., P. 193.

ومن الخدمات التي يقدمها المطوف للحجاج أنه كان يبعث في العادة خادماً في كل أسبوع مرة واحدة لكنس المجالس لهم، وإخراج الزبالة خارج الدار، وكان الحجاج يدفعون للمطوفين المصالح؛ ليتم توزيعها على من يستحقها من الناس بمعرفتهم، ومنها الأبدال والعقائق والقرابين، وكان بعض الأهالي الذين يعملون مطوفين ومرشدين يمدون الحجاج بالطعام في مقابل مبلغ من المال يتفقون عليه. انظر: عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ٣٩٣ - ٣٩٧؛

Norman C. Walpole., op. cit., P. 240.

الحج، والرزق الذي يأتيهم منه يعيشون عليه طول عامهم، وبعد الموسم يغادر الكثير منهم مكة المكرمة إلى الأماكن التي فيها حجاج سبق التعرف عليهم أثناء الحج، فيقدمون لهم بعض الهدايا، ثم يبرحونهم، وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم(٦٨).

لذلك وصفهم بركهاردت بالوضاعة والإلحاح في طلب المال من الناس (الحجاج)، واستغلالهم بشكل جشع، ويقع الكثير من الحجاج خصوصاً الأتراك الذين لا يتكلمون العربية ضحية لهؤلاء المطوفين والأدلاء عندما يتوسطون بصفتهم مترجمين بين الباعة والحجاج، كما يفرض هؤلاء المطوفون أنفسهم على الحجاج، ولا يفارقونهم من مطلع الشمس إلى مغيبها، حتى إنهم يشاركونهم في طعامهم وشرابهم، ولا يسمحون للحجاج بعمل أي شيء دون الرجوع إليهم في المشورة(٦٩). ومن دلائل ذلك أن المطوفين كانوا يوقفون أغنياء الحجاج في سوق المزايدة حتى يرسو أمرهم على أيهم يتولى شؤونهم(٧٠).

ويتمركز بعض الأدلاء والمطوفين بشكل دائم بالقرب من الكعبة بانتظار من يطلب خدماتهم من الحجاج للطواف حول الكعبة، وعندما يرى أحد المطوفين حاجاً منفرداً يذهب إليه، ويمسك بيده، ويبدأ بقراءة أدعية الطواف دون أن يطلب الحاج منه ذلك، ويتقاضى المطوف أجرة تقدر بنصف قرش، وقد لحظ بركهاردت بعض المطوفين يساومون

(٦٨) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦١.

(69) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 193; Sir Reader Bullard, The camels must Go An Autobiography, London, 1961 P. 126 - 127.

(٧٠) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦٢ - ٦٣؛ ونظراً لأهمية الطواف لدى أهل مكة المكرمة فإن أحد الرحالة العرب ويدعى "الورتلاني" كان يعلم بعض أهل بلاده مناسك الحج، ويطوف بهم، فلما رأى أهل مكة المكرمة ذلك اعترضوا عليه، وقالوا له: "ألم تعلم أن أهل مكة المكرمة لا ينتظرون إلا هذا الموسم؟ طف لنفسك، واترك الناس"، وبعد المفاوضات اتفقوا على أن يستمر هو على ما كان فيه، ويأخذوا هم الأجرة من الحجاج. انظر: أبو القاسم سعد الله: "الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٣٤٣.

الحجاج، ويفاصلونهم على هذه الأجرة على مسمع من الناس، ويكتفي الدليل المعتدل بربع قرش أجرة على خدماته، ويقوم بعض أصحاب الدكاكين بإرسال أولادهم إلى المسجد الحرام؛ ليتعلموا مهنة الطوافة والدلالة(٧١)؛ لذلك تجد أن المطوف ربما كان صغيراً في السن لا يزيد عمره عن ست سنين أو سبع يحمله بعض الطائفين على أكتافه؛ ليطوف به وهو على هذه الحالة يلقنهم الدعاء(٧٢).

لهذا السبب أشار البتنوني إلى إنشاء مدرسة خاصة لتخريج المطوفين لدراسة كل ما يتعلق بمهنة الطوافة، وعدّ ذلك أكبر خدمة دينية؛ لأن أكثر المطوفين جاهلون بمهمتهم الكبرى، فبعضهم يدخل في عقل الحاج ما ليس من الدين في شيء، كما أن بعضهم الآخر يحرّف ألفاظ القرآن الكريم أثناء الطواف عمداً سواء بالترقيق أو التفخيم مما لا يجوز تفخيمه أو لا يصح ترقيقه، ولتقريب الحرف إلى نطق السامع إن كان تركياً أو هندياً أو فارسياً كانوا يقومون بقلب الحرف بآخر(٧٣).

ويكسب الأدلاء والمطوفون الذين يجيدون اللغة التركية(٧٤)، وهي اللغة التي يتحدث معظم أهل مكة المكرمة بها، وبعض المطوفين يتحدث بلغات مختلفة كالهندية والأوردية والجاوية والفارسية والصينية(٧٥) مبالغ كبيرة؛ حيث إن أجرهم أعلى من غيرهم.

(71) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 195.

(٧٢) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٧٣) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٥٩ - ٦٠؛ ونظراً لأهمية الأمر فقد أمر الملك عبدالعزيز في عام ١٣٤٧هـ/ ١٨٢٨م؛ بإنشاء مدرسة للمطوفين ونظامها ومواد التدريس فيها، وكانت مدة الدراسة فيها سنة واحدة، ويجري الفحص في نهاية السنة الدراسية وتعطى الشهادات للناجحين، ولا يجوز لغير حامليها الاشتغال بمهنة التطويف. انظر: عبدالرحمن بن سبيت السبيت وآخرون: من وثائق الملك عبدالعزيز، إصدارات المهرجان الوطني للتراث والثقافة ٦٠، رئاسة الحرس الوطني، الرياض، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ٢١١.

(74) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 195.

(٧٥) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٤٥.

وبما أن الحجاج الأتراك يقدمون عن طريق جدة في جماعات يتراوح عدد الواحدة منها ما بين (٨) و(١٢) حاجاً ويقيمون في جماعاتهم، وليس بشكل منفرد في مكة المكرمة، ويتولى في العادة دليل واحد أمر الجماعة بأكملها، لا سيما أن التركي الذي يأتي من الجزء الأوروبي من تركيا أو من آسيا الصغرى الذي لا يعرف كلمة عربية واحدة يجد الطمأنينة عند الدليل الذي يتحدث التركية بطلاقة، ويعده بالراحة والهدوء في مكة المكرمة خصوصاً وأن هذا الحاج لا يتوقع فيها سوى العناء والتعب، ويحصل الدليل الذي يقوم على خدمة جماعة مؤلفة من (١٢) حاجاً لمدة شهر على أجر يعادل جميع نفقاته ونفقات عائلته وملبسهم لمدة عام كامل من هؤلاء الحجاج الأتراك(٧٦)، فلكل مطوف حجاج مخصصون على حسب اختلاف البلدان، فترى للأتراك أو الهنود أو البخاريين أو المصريين مثلاً مطوفين خاصين بهم، بل لكل قسم من أقسام البلاد مطوف معلوم يتوارث عن أبيه خدمة حجاجه تعينه إمارة مكة المكرمة لهذا الغرض، وكانوا كالملتزمين يحتكر كل منهم رسمياً صنفاً من أصناف الحجيج لا يمكنه أن يتعداه إلى غيره؛ لأنهم كانوا يشترون من أصحاب السلطة بمكة المكرمة هذه الالتزامات، ولذلك كان لبعضهم سلطان على حجاجهم يأمرون فيهم وينهون، ولا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة، ولكن بعد ذلك زال هذا الاحتكار، وأطلقت الحرية للحجيج يطوفون مع أي شخص أرادوا(٧٧).

ويتوقع أن تكون أجرة الدليل على خدماته متناسبة مع عدد أفراد هذه الجماعة، وغالباً ما يقوم الحجاج الأتراك بتوصية أقربائهم

(76) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 195.

(٧٧) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ١٢٣-١٢٤؛ عبداللطيف عبدالله بن دهيش: "دراسة موجزة لبعض مؤلفات كريستيان سنوك هور غروني عن تاريخ الجزيرة العربية"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٩٣.

الذين سيأتون للحج في مواسم مقبلة باسم دليل معين لخدمتهم، وحال وصول هؤلاء الحجاج إلى جدة يأمرون هذا الدليل بتوفير سكن لهم في مكة المكرمة، وملاقاتهم في جدة لاصطحابهم في رحلتهم من جدة إلى مكة المكرمة، وكذلك القيام بخدمتهم لقراءة الأدعية الخاصة بشعائر دخول المسجد الحرام، ويسكن بعض الأدلاء في جدة في فترة الشهور الثلاثة التي تسبق الحج، حيث يقوم هؤلاء الأدلاء باستقبال جماعات الحجاج الأتراك، واصطحابهم إلى مكة المكرمة(٧٨)، ولذلك ترى في موسم الحج في جدة حركة مستديمة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً من الحجاج الذين إذا وصلوا إليها وجدوا على أبواب جمركها مطوفيهم أو وكلاءهم في انتظارهم، وهم ينادون: "يا حاج فلان" أو "يا حجاج فلان"، يعنون المطوف؛ فيعرف الحاج اسم مطوفه، فينادى عليه وهو في هذه الشدة، فيبادر إلى مساعدته، ويأخذ منه ورقة جوازه؛ ليعلم عليها من قلم الجوازات، ثم يصير معه إلى منزل يقيم به يوماً أو يومين يصلح فيها من شأنه في نظير أجر يدفعه لصاحبه، ثم يؤجر حميره أو جماله، ويسافر إلى مكة المكرمة بعد أن يشتري شقادفة(*) إن كان لها ضرورة عنده(٧٩).

(78) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 195.

(*) الشقادف: مفردها شقدف، وتسمى الهودج، وهي نوعان: نوع مهلهل بدائي يتكون من الخسف، ونوع يصنع من خشب خارجي تأخذ الشكل المخروطي المنظم، وتصنع في جدة، وهي من الصناعات الرائجة عندما كان النقل والانتقال يتم بوساطة الجمال بين مدن الحجاز، وهي المحامل التي يركبها الحجاج، وتوضع فوق ظهر البعير في هيئة قبة، ويتكون من جزئين متقابلين معدين للنوم فيهما لشخصين. انظر: عبدالقدوس الأنصاري: موسوعة تاريخ مدينة جدة، م١، ط٢، مطابع الروضة، جدة، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص ٤٦٥؛ سعد بدير الحلواني: المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٧٩) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ١٠؛ كما يحدث في مكة المكرمة يحدث في المدينة المنورة حيث كان الحجاج ينزلون في بيوت الأدلاء الذين يكونون بصحبتهم لزيارة المسجد النبوي والآثار بالمدينة المنورة، ويتولى هؤلاء الأدلاء إنزال القادمين من الزوار في بيوتهم وإطعامهم والعناية بهم من بداية وصولهم إلى المدينة المنورة إلى وقت رحيلهم عنها، وكان الناس في الحجاز يسمون هؤلاء الأدلاء المزورين نسبة إلى محال الزيارة، وهم يؤدون في المدينة وظيفة المطوفين في مكة =

خلاصة القول، فإن مكة المكرمة تتميز بسمات اقتصادية خاصة استمدتها من قدم تاريخها وظروفها المكانية، وثقلها السكاني، ومميزاتها الحضرية، ولذا فإن هذه الدراسة تلقي الضوء على ملامح التجارة الداخلية من خلال نظرات أحد الرحالة الأوربيين الذي زار مكة المكرمة، ونقلها لنا(٨٠).

وقد تناول هذا الرحالة جوانب مهمة تتعلق بالتجارة الداخلية، تضمنت السلع المتوافرة في السوق سواء كانت سلعًا زراعية أو صناعية ونظام السوق من حيث البيع والشراء، وترتيب المحال وأوقات انعقاده ومكانه والوظائف العاملة فيه كالسمسار والدلال وغيرهم، والأسعار وكيفية التعامل معها مشيرًا إلى بعض الجوانب التي لم يتطرق لها في كتابته عنها؛ لأنه قرر "أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل معرفة التفاصيل الدقيقة الخاصة بالتجارة الواسعة في مكة المكرمة باستثناء أن يكون الشخص مشتغلاً بالتجارة أو له صديق مطلع من أوساط تجار الجملة؛ لذا فإنني أتحفظ في ذكر أي بيانات بهذا الخصوص خشية الإتيان بمعلومات خاطئة، كما أنني لم أجد من يقدم لي البيانات المطلوبة عن التجارة في مكة المكرمة"، وذكر أن الأفراد الذين يزعمون بأنهم لا يشتغلون بالتجارة من أهلها يرتبطون إما بالحكومة وإما بالمسجد الحرام، ولكن كما أشرت سابقاً فإن جميع أهل مكة المكرمة معنيون بنوع من التجارة، ويتطلعون دوماً لموسم الحج موردًا للدخل(٨١).

= المكرمة، وكانت معظم الأسر في مكة المكرمة وجدة لهم أدلاء معينون تستمر الصلة بهم، وتتوارث جيلاً بعد جيل. انظر في ذلك: محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٢٥٩؛ محمد علي مغربي: أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة ١٣٠١-١٤٠٠هـ/ ١٨٨٣-١٩٨٠م، ج٢، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٨٠) عمر الفاروق السيد رجب: المرجع السابق، ص ٢٥٠؛ إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٤٤.

(81) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 190-192.

ومع ذلك فإن رحلة بركهاردت رحلة مهمة لا تخلو من فوائد ترصد الأوضاع الاقتصادية لمنطقة الحجاز في بداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، التي يمكن استنتاج ما يأتي، منها:

١ - إن الأوضاع الاقتصادية في الحجاز تتأثر تأثراً كبيراً باستقرار الأوضاع السياسية العامة، فهناك ارتباط وثيق بين استقرار الأوضاع السياسة الداخلية، وتحسن الأوضاع الاقتصادية، ورخاء البلاد، وإذا حدث العكس واضطربت العلاقات بين حكامها والقوى الإسلامية الكبرى عمت الكوارث الاقتصادية، وتدهورت الأحوال[٨٢].

٢ - كان سكان مكة المكرمة ينتفعون من موسم الحج بوسائل مختلفة، كما كان التجار والأشراف يستفيدون منه استفادة كبيرة أيضاً[٨٣].

٣ - اعتماد هذه الدراسة على عنصري الملاحظة والرواية الشفوية، وهما المصدران اللذان اعتمد عليهما بعض الرحالة الأوربيين في كتاباتهم في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن هذا الرحالة كان يكتب ويؤلف كغيره من الرحالة؛ ليقدم ذلك للقارئ الأوربي قبل كل شيء؛ ولذلك تحرى الدقة في نقل المعلومات، وإن لم تخل من بعض الأخطاء، التي لم تكن أخطاء متعمدة[٨٤].

(٨٢) عبدالله الصالح العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية، ج١، ط٨، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٢٤.

(٨٣) عبدالله الصالح العثيمين: "تاريخ المملكة"، المرجع السابق نفسه، ص ٢٣.

(٨٤) عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١٢٤.